قصة قصيرة...
وتُشرق عين الشّمس...

ديمة جمعة السّمان

أديبة وروائية فلسطينية

انطلق آذان الفجر من على مآذن المسجد الأقصى المبارك، ينتشر على مساحة مدينة القدس وقُراها، يصعد إلى قِمَمِ جبالها، يتمطّى على سهولها، ينحدر إلى عمق أوديتها.. له خشوع الزّاهدين.. وانكسار العابدين.. وذُلّ المتقرّبين إلى الله تائبين مستغفرين.

عَلا صوت تثاؤب أهل المدينة.. فالجفون لا زالت مُنْسدلة، والنّعاس لا زال يخدّر الأجساد، والتّشهّد، والتّسبيح، والدّعاء كلمات تخرج من عمق الصّدر بطيئة كسلى.. ترتاح على كرسيّ اللسان في تجويف الفم، فتخرج ممطوطة مغموسة بكسل التّثاؤب: (أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله. أصبحنا وأصبح الملك لله).

علا صوت سلمى توقظ زوجها فارس (أبو عمر):

– أبو عمر.. أبو عمر.. انهض.. لقد أذّن الفجر، ستفوتك الصلاة جماعة في المسجد الأقصى.

استيقظ فارس يتشهّد:

– أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ محمّدًا رسول الله.. اسبقيني يا أمَّ عمر إلى الوضوء وسأتبعك.

ذهبت سلمى تتوضّأ، وعادت يَسْبقها صوتها بالتّسبيح والتّكبير.

علا صوتها متفاجئة بشخير زوجها وهو يَغُطُّ في نوم عميق.. فأخذت تهزُّه بحنان:

– يا رجل.. ستفوتك الصّلاة! ما هذا الكسل؟ سمعت أصوات رجال الحيّ من النّافذة تعلو بالتّسبيح.. سيفتقدونك، ويسألون عنك.. خيرًا إنْ شاءالله، تبدو تَعِبًا، أين نشاطك المعهودُ؟ ما بك يا فارس؟

فتح فارس عينيه بصعوبة.. ونهض من فراشه متثاقلًا يُحَوْقِلُ.. وأخذ يُطمئنُ زوجته:

– لا شيء يا أم عمر.. لا شيء.. يبدو أنّني لم آخذْ كِفايتي من النوم.. فقد صاحبني القلق، وجافاني النوم الليلة.

– ما الأمر.. أقلقتني!

– لا تقلقي.. لا تقلقي يا سلمى..

توضَّأَ فارس، وارتدى (دشداشته) البيضاء التي اعتاد على ارتدائها عند ذهابه للصلاة، وتوجَّه مُسرعًا نحو باب المنزل يُحَوْقل، وَيُتَمْتِمُ بكلمات يُكرِّرها تتعثَّر على لسانه، لم تستطع أُذُنُ سلمى التقاطها بوضوح.. فسألته: ماذا تقول، لم أسمع.. أتتحدَّث معي؟

ردَّ مضطربًا:

– لا لا.. كنت أُسبِّحُ يا أمَّ عمر... أستودعك الله.

– مع السلامة.. بأمان الله.

أغلق فارس الباب خلفه تاركًا زوجته سلمى محتارة بأمره.. فهي تعرف زوجها خيرَ معرفة، لا يخفى عليها أمره.. لا بدَّ من أن هناك أمرًا يزعجه.. تساءلت، ماذا يُخفي عنها؟ اعتاد أنْ يشاركها في كل كبيرة وصغيرة، فهي ملجؤه وبيت سرّه وشريكته ورفيقته

وحبيبته كما اعتاد أن يعرّفها أمام القريب والغريب في كل مناسبة.. دام زواجهما أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، عاشا الحياة معًا بحلوها ومرها.. يتكئان على بعضهما البعض عند كل عقبة تواجههما.. يتخطّيانها سويًّا.. لم يسمحا لأيّ أمر أن يعكّر صفو حياتهما رغم كل الصّعاب التي واجهتهما.. كانت علاقتهما مميزة.. نموذج للزواج النّاجح والحياة الأسرية السعيدة.. يُضربُ فيها المثل في كل مناسبة عند القريب والغريب.

جمعهما الحبُّ، وهما لا زالا في عمر المراهقة، وَكَبُرَ الحبّ في قلبيهما مع السّنين. أَصَرّا أن يُتوَّجَ هذا الحب بالزّواج، على الرّغم من معارضة الأُسْرتَينِ، فقد كانت أسرة سلمى مقتدرة ماليًّا.. والدها يملك شركة مقاولات.. يبيع العمارات بملايين الدّولارات.. أمّا والد عمر، فقد كان يملك بَسْطَةً خشبية.. يتوجّه في كلِّ صباح نحو فُرن شهير في حيِّ المصرارة القريب من باب العامود التاريخيّ، يملأ بسطته بِكَعْكِ القدس.. يحملها على رأسه.. ويتَّجِهُ نحو مكانه المعتاد على الرّصيف المقابل لمدرسة شميدت للبنات.. وينطلق صوته الذي أصبح معروفًا لكلِّ من يَمُرُّ بالمكان: «كعك سخن.. فلافل.. بيض مشوي.. كعك سخوووووون.... يلا يلا قرب تعال لحّق حالك.. كعك سخووون».

فيتهافت عليه طلبة المدارس.. كلٌّ يأخذ كعكته بالسمسم، وحَبّة من الفلافل الشهيّ.. وبعضهم يأخذ بيضة مشويّة، وقليلًا من الزعتر الأخضر المطحون الملتف بورق الجرائد.. ويتوجَّهُ سعيدًا إلى مدرسته، يحمل زُوّادة يومِه يتناولها أثناء فترة الاستراحة بين الحصص المعروفة بـ(العصرونة).

عادت الذاكرة بسلمى إلى تلك الأيّام عندما كانت طالبة في المرحلة الإعدادية في مدرسة ترسنطا داخل سور القدس العتيق.. كانت تسكن في (فيلا) في بلدة بيت حنينا في حيٍّ راقٍ.. اعتاد والدها أنْ يصطحبها في كلّ صباح بسيارته الفاخرة من نوع مرسيدس، يوصِلُها إلى مدخل باب الجديد حيث تقع مدرستها.. إلّا أنَّها كانت تضطرُّ في بعض الأحيان أنْ تركب الحافلة لتتوجَّه إلى مدرستها صباحًا في الأيّام التي كان يصعب على والدها أنْ يصحو باكرًا.. إذ إنَّ كثيرًا منِ اجتماعاته الخاصّة بالعمل كانت تعقد مساءً،

وتستمرّ حتى وقت متأخِّر من الليل.

في تلك الأيّام كانت تتَّفِقُ مع زميلتها ليلى، التي تسكن في منزل قريب من منزلها، أن تلتقيا في تمام الساعة السابعة صباحًا عند محطَّة الباص القريبة من منزلهما؛ لتذهبا سَوِيًّا إلى المدرسة.

كم كانت تشعر بالسعادة عندما كانت ترافق زميلتها.. إذ إنَّ آخر محطّة للباص كانت عند باب العامود.. فتضطرّا للمشي على الأقدام إلى مدرسة ترسنطا في باب الجديد التي تبعد حوالَيْ نصف كيلو متر عن باب العامود.. وفي كثير من الأحيان تلتقيانِ بزميلاتهما عند طلعة باب الجديد، وَيُكْمِلْنَ الطريق سويًّا باتِّجاه المدرسة، كلٌّ تتذكّر موقفًا مُضحكًا حصل معها في المدرسة مع معلِّماتها.. فتَعْتَريهنّ حالة من الضحك طَوال الطريق تلفت نظر كلِّ مَنْ يمُرّ بجانبهن.

وما كانت سلمى أو ليلى تُفَوِّتانِ شراء الكعك بالسمسم، من بسطة العمِّ أبي فارس الشهيرة.

في صباح يوم من الأيّام، مَرّت سلمى وزميلتها ليلى ببسطة أبي فارس.. ولكنَّهما تفاجأتا بأنَّ أبا فارس لم يكن خلف البسطة.. كان يقف بدلًا منه شابٌّ وسيم، يتعامل مع زبائنه بمنتهى اللطف، وقعت عين سلمى عليه، فتذكرته.. هو فارس.. نعم هو.. لن تنسى تلك الحادثة في آب الماضي، قبل نحو شهرين على درجات باب العامود، عندما تزحلقت بقشرة موز، أفقدتها توازنَها فوقعت على ظهرها، وتناثر كلُّ ما كان في الكيس الذي كانت تحمله من قرطاسيّة وأدوات رسم، كانت قد اشترتها تُهَيِّئُ نفسها للعام الدراسيّ الجديد. كان يقف بمكان قريب منها شابٌّ وسيم، أنيق، بَدا دَمِثًا خلوقًا.. أسرعَ نحوها، وساعدها على النهوض، وجمع ما تناثر من أشيائها، ووضعها في الكيس من جديد، وناولها بعض المناديل المُعَطَّرَةِ؛ لإزالة ما عَلِقَ بملابسها من أوساخ، ولم يتركها إلّا بعد أنِ اطمأنَّ عليها.. وعَرَضَ عليها أنْ يصطحبها إلى عيادة طبيب قريبة من المكان.. فشكرته مُحرَجَةً، وطمأنته أنَّها بخير.. وأسرعت تُخفي نفسها بين جموع الناس تتمنّى لو أنَّ الأرض تبتلعها.

كان يوم السبت، وفي هذا اليوم، بالتحديد من الأسبوع، تَعُجُّ البلدة القديمة بالمواطنين، والسّيّاح، والزائرين من الشمال المحتلّ عام 1948م، كما ينتشر المستوطنون بكثافة، خاصّة المُتديّنين منهم، يتوجَّهون إلى حائط البراق الذين يُسمّونه حائطَ المبكى؛ ليمارسوا طقوسهم الدّينية حسب الديانة اليهودية.

أكملت سلمى مشوارها إلى بيت زميلتها منى التي تسكن في حارة النَّصارى مُضطربةً، تختلط مشاعرها بين الغضب من صاحب قشرة الموز الذي تسبَّب لها بهذا الموقف، وبين مشاعر الإحراج التي تُصيب أيَّةَ صَبِيَّةٍ تقع في الشارع أمام جموع الناس.. ومع كلِّ هذا.. فقد اعْتَرَتْها مشاعر غريبة لم تشهدها من قبلُ.. كانت تشعر بأنَّ قلبها يرقص من الفرح.

لم تعرف سلمى من هو هذا الشابُّ اللطيف الوسيم، إلّا أنَّها سمعت شابًّا يقف أعلى الدرجات ينادي عليه.. هيا يا فارس لقد تأخَّرنا.. فعرفت أنَّ اسمه فارس.

لم تَغِبْ صورة هذا الفارسِ عن مُخَيِّلَتِها، فقد نام تحت جفنيها طيلة تلك الليلة، وتمنَّتْ أنْ تلتقي به مرَّة أخرى، إلّا أنَّ الحظَّ لم يحالفها.

وها هي، اليوم، تلتقيه من جديد، كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها.. زادت دقّات قلبها.. وتدَفَّقَ الدمُ إلى وجهها يفضح مشاعرها. كان فارس مشغولًا يبيع الزبائن، تسمَّرَتْ مكانها تنظر إليه بذهول.. ترى ماذا يفعل خلف البسطة؟ ما علاقته بصاحب البسطة؟ لاحظت زميلتها ليلى ارتباك سلمى، فَلَكَزَتْها تسألها ما الأمر.. بعد لحظات التقتِ العيون، فتدفَّقَ الدم إلى وجه فارس يُفشي سِرًّا حاول أنْ يُخفيَه.. ولكن مشاعره خذلته، وفضحت أمره هو أيضًا.

علا صوت الزبائن كلٌّ يريد أنْ يدفع ثمن كعكته، ويغادر، فتدارك فارس الموقف، وعندما جاء دَوْرُ سلمى وَضَعَ لها كعكتها في كيس، ورفض أن يأخذ ثمنها.. ولكنَّها أصرَّت أنْ تدفع. كلُّ هذا أمام صديقتها ليلى التي كانت تتنقل بعينيها بين الوجهين، لا تعرف تفسيرًا لِما يحدث.

أمسكت ليلى بيد صديقتها، وشدّتها تحثّها على السّير.. وسألتها عما يجري، فأخبرتها بأنه الشابُّ «فارس» الذي حدَّثتها عنه يوم زيارة زميلتهما منى في حارة النّصارى.

ضحكت ليلى، وقالت: العَوَضُ على الله.. أين العقل؟ حبيبك ابن صاحب البسطة يا صديقتي.. لا تقولي لي إنّك معجبة بابن صاحب بسطة الكعك!! يبدو أنّه يتناوب مع أبيه على البسطة، ولا يذهب إلى المدرسة.. تذكّري ابنة من أنت.. لا تتركي عاطفتك تَجْرِفُكِ إلى ما هو غير مقبول في عُرف عائلتك.

لم تجب سلمى.. كانت في حالة ذهول، تساءلت، هل يذهب فارس إلى المدرسة؟ هل يعمل مع أبيه على البسطة؟ تدافعتِ الأسئلة في رأسها.. شعرت أنه سينفجر. عادت إلى منزلها مكتبئةً، فلزمت غرفتها.. ورفضت تناول وجبة الغداء مع الأسرة.

حاولت أمُّها استدراجها لمعرفة سبب حالتها النّفسية السّيئة.. فادّعت أنّها لم تُجِبْ عن جميع أسئلة اختبار مادَّة الرّياضيات.. إذ كانت ورقة الاختبار في غاية الصّعوبة.. وأنَّها لا تضمن أنْ تحصل على علامة النّجاح.

ضمّتها أمُّها لصدرها.. ووعدتها أنْ تُحضر لها أستاذًا؛ لإعطائها دروسًا خصوصيّة؛ لتقويتها في مادّة الرّياضيات.

وفي المساء، التمَّ جميع أفراد أسرة سلمى يُشاهدون التّلفاز، ويتجاذبون أطراف الحديث، وعندما بدأت النّشرة الإخبارية المصوّرة في التّلفاز الأُردنيّ، في تمام السّاعة الثّامنة مساء، والّتي كان يحرص الأب دائمًا على مشاهدتها لمتابعة ما يجري على السّاحة السّياسية، نهضت سلمى للذهاب إلى غرفتها، فهي لا تهوى السّياسة:

بدأ موجز الأخبار:

– جامعة الدّول العربية تعترف بمنظَّمة التحرير الفِلَسْطينيّة بوصفها «الممثّلَ الشرعيَّ والوحيدَ للشّعب الفِلَسْطينيّ، وتقبلها عضوًا كاملًا في الجامعة.

– قامت عشرات من جنود الاحتلال الإسرائيليّ فجر اليوم باقتحام منزل بائع الكعك

عمـــر الفرّان المعروف بأبي فـــارس، الكائن في حيٍّ باب حِطَّةَ في بلـــدة القدس القديمة، واقتادتـــه إلى المســـكوبيّة؛ للتّحقيق معه في قضيّـــة عمليّة التفجير التـــي وقعت قبل نحو أسبوعين في شارع يافا في القدس الغربية، ذهب ضحيتها قتيلَيْنِ، وعشرات من الجرحى.

سمعت سلمى الخبر، فعادت مسرعة، وجلست مكانها في الصّالة؛ لتستمع إلى تفاصيل الخبر. نظرت أمُّها نحوها، مستغربةً من تصرُّفِ ابنتها.. إلّا أنّ سلمى برَّرَتْ عودتها:

– يا حرام.. إنّه صاحب البسطة التي نشتري منها الكعك في صباح كلِّ يوم يا أمّي.

في التفاصيل شاهدت ســـلمى تقريرًا تلفازيًّا خاصًّا بأسرة أبي فارس. فعرفت أنَّه ابن شـــهيد عاش يتيمَ الأب، وهو في الســـابعة من عمره؛ ما اضطرَّت أمّه للعمل في تنظيف البيـــوت؛ لإعالته هو وأخته التي تَصْغُرُه بســـنتين. له ابنة متزوّجـــة في العاصمة الأردنيّة عمّانَ، وثلاثة أبناء ذكور أكبرهم فارس في السّادســـة عشرة من عمره، وســـائد في الرّابعة عشرة، وأصغرهم رائد في الثانية عشرة من عمره. جميعهم يدرســـون في مدرســـة الأيتام الإسلامية في القدس. أمّا زوجته أم فارس فتعمل بالخياطة في منزلها الكائن في باب حِطَّة.

عادت ســـلمى إلى غرفتها مسرعةً، لم تســـتطع أنْ تكبح جماح دمعة تمرّدت، ففرّت من عينها. أغمضت عينيها.. اســـتعادت لحظة التقاء العيون.. لم تَخْفَ عنها نظرةُ الحزن التي كانت تطلُّ من عينيه، رغم فرحة لقائه بها. بكت بحرقة تلك الليلة، «يااااه.. يتركنا الحبُّ مصلوبين أمام حيرتنا، لا نحن قادرون على الفرار، ولا نحن قادرون على الاستمرار. قد يكون حبُّك خطأً يا فارس، ولكن.. من قال: إنّني أريد أنْ أكون على صواب! ما أجمل أنْ أحسّكَ بعقلي، وأراك بقلبي، وأعشقك بروحي».

أرادت سلمى أنْ تتواصل معه، تُخَفِّفُ عنه مصابه، ولكن كيف؟

لم تنمْ تلك الليلة، وفي صباح اليوم التّالي لم تذهب إلى المدرسة.. شعرت بإعياء شديد.. جعل والدتها تستدعي لها الطّبيب إلى المنزل.

إلّا أنَّ الطبيـــب طمأنَها بأنَّ ما بهـــا لا يزيد على إرهاق وتوتُّر، ربَّـــما نتيجة اختبارات

المدرسة نصف الفصليّة.

دُقَّ جرسُ الهاتف يقطع ذكريات سلمى (أمّ عمر)، تساءلت خائفة.. ترى من يتّصل بمثل هذا الوقت الباكر! لعلّه خيرٌ.. رفعت سمّاعة الهاتف، وإذا بها ابنتها أمل.

- صباح الخير يا أمّي.

لاحظتِ الأمُّ رجفةً في صوت ابنتها: ما بك يا أمل؟ خير إنْ شاء الله؟

- أمّي.. ألم يخبرك أبي!

- يخبرني بماذا.

انفجرت أمل باكية:

- لقد أطلق الجنود النّار على باسل عصر البارحة بعد خروجه من المدرسة خلال مسيرة سِلْميّة في شارع نابلس.. ثمَّ اعتقلوه.

أمّي.. هذه أوَّل ليلة يَبيت فيها باسل خارج المنزل.. لا أعلم وضعه ومدى إصابته.

صُدِمَتْ سلمى من الخبر، وعلمت الأمر الذي كان زوجها يُخفيه عنها، هو يعلم مدى تعلُّقِها بحفيدها البكر باسل، ربَّما أراد أن يوصل لها الخبر بالتّدريج كي لا يصدمها..

كتمت سلمى صرخة، ونزلت الدّموع من عينيها.. فسألت تحاول أنْ تَبْدُوَ هادئةً كي لا تزيد من توتّر أمل:

- هل كان معه أحد من أصدقائه الذين أنتم على صلة مع عائلاتهم؟ هل تواصلتم مع أحد منهم؟

- نعم، علمنا من صديقه فؤاد ابن الجيران أن باسل أُصيب في رجله بطلق ناريٍّ، وسقط على الأرض، فهجم عليه ثُلَّةٌ من الجنود، وأوسعوه ضربًا يا أمّي، ومِنْ ثَمَّ جَرّوه نحو الجيب العسكريّ، وقذفوه داخله.

– حسبُنا الله ونعم الوكيل. أين هو الآن؟ أعني في أيِّ مشفى؟

– علمت أنّه الآن في مشفى هداسا عين كارم.

– هؤلاء مجرمون.. كيف يعتقلون طفلًا لم يتجاوزِ الثّالثة عَشَرَة عامًا؟

– اعتقلوه يا أمّي، واعتقلوا مَنْ هم أصغر منه سِـنًّا أيضًـا.. لا ضميرَ.. ولا رحمة في قلوبهم.

– لا حول ولا قوَّة إلّا بالله.. من المؤكَّد أنَّهم سيُفْرجون عنه، فليس له سوابقُ عندهم، سيعود إلى حضنك يا أمل لاتقلقي.

– يا ربّ.. ولكن أين أبي؟ ألم يَعُدْ بعدُ من صلاة الفجر، جوّاله مغلق.

– لا.. لم يعد بعد.

وإذا بفارس يفتح باب المنزل..

– انتظري.. انتظري يا أمل، وصل أبوك من الصّلاة.

دخل فارس متثاقلًا، فأعطته سلمى سمّاعة الهاتف:

– أمل على الهاتف.. لماذا لم تخبرني يا فارس؟ قالتها بعتاب.

– كنت سأعلمك اليوم بالتأكيد يا سـلمى، ولكن ما أردتك أن تنامي متكدّرة.. فقد كانت ليلتي صعبة، لم يَغْفُ لي جَفْنٌ.

تحـدّث فارس إلى ابنته وطمأنهـا، فهو محامٍ ضليع، متخصِّـص في مجال الاعتقالات الأمنية:

– لا تقلقي يا ابنتي، سـيعود ابنك لك. توكَّلي على الله. سـأزوره اليوم في المشـفى، وسأقوم بالاتّصالات اللازمة.. وإنْ شاء الله خيرًا.

أغلق فارس الهاتف، ودخل سريره يطلب الرّاحة، علَّه يسـتطيع أن يغفوَ ولو سـاعةً

واحدة، فأمامه يوم حافل وشاقٌّ.

لم تستطعِ الجدَّة سلمى النّوم. هجمت عليها ذكريات الماضي.. سحبتها إلى فترة مراهقتها من جديد.. فحدَّثت نفسها: يا إلهي.. ما بها هذه العائلة.. ترى.. هل النضال يورّث؟ تذكّرت العمَّ أبا فارس ابنَ الشّهيد الذي فارقت روحه جسده، وهو يقف على سور القدس يحمل بندقيته عام 1948م. ثبت تورُّطُه في عملية التفجير في شارع يافا، حكمت عليه المحكمة مؤبَّدَيْنِ، إلّا أنَّ روحه صعدت إلى السّماء شهيدًا بعد سبع سنوات من الاعتقال.. فقد كان مريضًا، ولم يلقَ العناية الطّبّيّة اللازمة خلف القضبان.

كانت صدمة فارسٍ كبيرةً، فما كان إصراره على التفوّق والحصول على أعلى المعدَّلات في الثانوية العامّة؛ إلّا لتحقيق حلم راودَه منذ أنْ تمَّ اعتقال أبيه.. كان يرى في أحلام اليقظة أنّه محامٍ شهير، يقف في المحكمة العليا أمام القضاة، يستأنف الحكم لأبيه، يدافع عنه بشراسة، ويستدعي الشّهود لاستجوابهم، وبعد تداول القضاة، ينطق القاضي بالحكم بالبراءة، فيخرج أبوه محمولًا على الأكتاف، كلُّهم يهتفونَ باسْمِ الأسير المحرَّر.. وكلُّهم يُشيد بذكاء ابنه فارس ومهنيّته.. فيشعر فارس بانتشاء وسعادة لم يشهدها في حياته.. يكفيه أنَّ أُسرته فخورة به، وأنه أعاد البسمة إلى شِفاهِ أمّه التي عانت الأَمَرَّيْنِ بغياب زوجها.

ولكنَّ الحلم لم يتحقّق، اختطف الموتُ ربَّ الأسرة قبل أن ينهي فارس عامَيِ التّدريب على ممارسة المحاماة، بعد تخرّجه في جامعة عين شمس في مصر. كان من أكثر الطّلبة ذكاءً ومثابرة، فما أراد أن يخسر المنحة المشروطة الّتي حصل عليها من إحدى المؤسَّسات الخيريّة المقدسيّة. إذ كان شرطُهم ألّا يقلَّ معدّله في الجامعة عن درجة جيّد جدًّا إنْ أراد أن يحصل على المنحة الجامعيّة كاملة، فاجتهد ألّا ينخفض معدّله عن الامتياز طيلة فترة الدراسة، وعاد إلى أرض الوطن بعد أربع سنوات، اشتاق فيها للقدس ولأسرته ولسلمى التي كان على تواصل معها، من خلال الرسائل الخطّيّة عبر البريد.. فقد توطَّدَتْ علاقتهما بعد أنِ اشتركا بمسابقات ثقافية جمعت مدارس القدس، جعلتهما يكتشفان مدى حاجتهما

لبعضهما بعضًا، رغم أنَّ كلًّا منهما يعيش في بيئة اجتماعية وظروف مختلفة عن الآخر. حرص فارس أن يعرف أخبارها أوَّلًا بأوَّل، إذ كان يخشى أن يجبرها والدها على الزّواج من عاطف ابن عمَّتها الطّبيب الجرّاح الذي يكبرها بعشر سنوات، ويعمل في مشفى هداسا العيسوية. كان عاطف طبيبًا متميِّزًا، أنهى اللَّقب الأوّل من دراسته الجامعيّة في جامعة دمشق، ثمَّ حصل على منحة دراسية في جامعة السّوربون الفرنسيّة، للتخصُّص بمجال جراحة الأعصاب، فاستقطبته إدارة مشفى هداسا لنُدرة هذا التخصُّص، ودفعت له راتبًا مُغريًا من أجل أن يتسلَّمَ إدارة القسم.

كان عاطف قد طلب يد سلمى قبل عدَّة سنوات، إلّا أنَّها رفضت بحُجّة أنَّها تريد أن تنهي تعليمها الجامعيّ، وتدخل الحياة العملية لبضع سنوات؛ لتكتسب خبرة في الحياة، قبل أن تغرق في مسؤولية الزّوج والأولاد.

أنهت سلمى تخصُّص أدب اللُّغة الإنكليزية من جامعة بيرزيت، وعملت مدرّسة للمرحلة الثانوية.

أمّا فارس فقد تدرَّب على ممارسة المحاماة في مكتب المحامي الشهير الأستاذ عبد الفتاح، الذي امتهن المحاماة لمدَّة تزيد على خمسة وأربعين عامًا، لم يخسر خلالها قضيّة واحدة، كان يمتاز بدهاء وذكاء أذهلتِ القضاة.. شديدَ الملاحظة، له نظرة ثاقبة في كلِّ مَنْ يقابلهم. اكتشف ذكاء فارس وحِنكته، فقرَّر أن يُمْسِكَ بيده، ويقدِّم له كلَّ ما يؤهِّله ليكون خليفته، خاصة بعد أنِ اكتشف شهامته، وأمانته، وأخلاقه العالية في عدَّة مواقف، بعضها جاء صدفة، وبعضها اختلقها الأستاذ عبد الفتاح عن قصد؛ ليختبره ويختبر إخلاصه له.. فأحبَّه، وكَبُرَ في عينيه، وقرَّر أن يوظِّفه في مكتبه بعد الانتهاء من فترة التّدريب، براتب مُغْرٍ يضمن له حياة كريمة.

كان الأستاذ عبد الفتاح يعتمد عليه في عديدٍ من القضايا المعقّدة، فلم يخذله في أيٍّ منها. بل أصبح الزّملاء من المحامين الّذين يدافعون عن خصوم موكّلي فارس يحسبون حسابه، ويتجنّبونه قَدْرَ الإمكان.

في ظهر يوم من الأيّام، عاد فارس سعيدًا من المحكمة بعد مرافعته في قضيّة أقلقت فريق مكتبهم، يبشّر الأستاذ عبد الفتاح بنجاحه في القضيّة، وتبرئة موكِّلهم، وبينما كانا يضحكانِ سعيدَيْنِ، يصف فارس احمرار وجه محامي خصمِه، عندما استمع إلى الشّاهد الأخير، خاصّة بعد أن أظهر فارس الوثائق الرسميّة التي تؤكّد صحّة كلام الشّاهد.. دُقَّ جرس الهاتف، فحوّلتِ السّكرتيرة الخطّ إلى فارس.

لاحظ الأستاذ عبد الفتاح اختلاف وجه فارس وانتكاسه من المكالمة.

وضع فارس سمّاعة التلفون متوتِّرًا، طالبًا مغادرة المكتب بحُجّة أنّه يحتاج إلى قسط من الراحة بعد سهر ليلتين متواصلتين؛ لدراسة لائحة الاتّهام للقضية. لم يقتنع الأستاذ عبد الفتّاح، وأصرّ على معرفة ما جدَّ بشكل مفاجئ على حالة فارس النّفسيّة، فهو يعرفه خيرَ معرفة، يرفض مغادرة المكتب باكرًا مهما كان تَعبًا، يمتلك طاقة غريبة.. ونشاطًا يَغْبِطُه عليه كلُّ مَنْ عَرَفه. وبعد إصرار الأستاذ عبد الفتاح على معرفة حقيقة الأمر، أخبره فارس بأنَّ سلمى أخبرته عبر الهاتف بِنيّة والدها تزويجها من ابن عمَّتها الدكتور عاطف، رافضًا مناقشة إمكانِ قبول فارس عريسًا لها.. وبأنَّ سلمى كانت تبكي منهارة تطلب منه التّدخل بأيَّةِ وسيلة.

ضحك الأستاذ عبد الفتاح، قائلًا: تحلُّ مشكلاتِ النّاس، وتترافع عنهم، ولا تستطيع أن تحلَّ قضيّتك يا فارس! أنت محام معروف، يشهد لك القاصي والدّاني! أين لسانك؟؟

– المشكلة في عقليّة والدها التّقليدية المتعصبة يا أستاذي، يريد تزويجها من شابٍّ ينتمي لعائلة من أصول مقدسيّة مدينيّة عريقة، شأنه شأنُ العائلات المقدسيّة الأخرى التي ظلمت بناتِها، وفضّلت أن يبقين دون زواج على أن يرتبطن بشباب من عائلات ليست بالمستوى المطلوب، وفْقَ معاييرهم الاجتماعيّة. لا أستطيع أن أتخيّلَ أنْ أفقد سلمى.. هي حبّي منذ تسع سنوات. سأذهب أطلب يدها الآن، سأخبره أنَّها لن تكون لغيري وو....

– على رِسْلِكَ يا رجل.. ماذا جرى لك؟ أتريد أن تفقدها إلى الأبد! هل جُنِنْتَ؟ أين ذكاؤك.. أين عقلك؟

– الحبُّ لا يخضع لعقل، أو منطق يا أستاذي.

– أحذّرك.. إيّاك مقابلته، أو الحديث معه يا فارس.. اتركِ الموضوع لي.. سأتصرّف.. والدها صديــق قديم لي، مِفتاحه معي.. توكّل على الله، وعلى العبد الفقير الذي أمامك.. أنت تعرف معزّتك عندي، لن أخذلك.

هزت رأســها الجدَّة سلمى تبتسم بأسًــى: يا إلهي، كم يكون الإنســان ضعيفًا أمام قضاياه!

دُقَّ جرس الباب، وإذا بابنتها أمل وزوجها سمير على الباب، اندفعت نحو أمّها تضع رأسها على كتفها تبكي بحُرقة، أمّا سمير فقد وقف دون حراك، نظرت سلمى إليه، فرأت حزن العالم يطلّ من عينيه.

– ما بك يا رجل؟ ماذا حصل.. ألا تثق بعمك فارس!

رمى بنفسه على الأريكة دون كلام، فأعادت السّؤال:

– ألا تثق بعمك؟

– آآآخ يا امرأة عمّي.. أثق به أكثرَ من نفسي، ولكنّني قلق على وضع باســل الصّحّيّ أيضًا.

فسألت سلمى: أين أبي؟

أخرجت ســلمى تنهيدة كأنَّها سَــحَبَتْها من عمر الزّمن: لم يَغْفُ له جَفْنٌ الليلة، دخل سريره؛ ليرتاح قليلًا.

وإذا بالجَــدِّ فارس يدخل الصّالة، فارتمت عليه أمل تضع رأســها على صدره تبكي.. ضمّها والدها، ورحّب بِصِهْره ســمير.. ثم قال مُوجِّهًا الحديث لابنته وزوجها.. مركّزا نظره على ســلمى حبيبته وزوجته التي كانت تحاول جاهدة أن تُخفيَ قلقها كي لا تزيد من توتر ابنتها:

– لا داعي للقلق يا جماعة.. إن شاء الله خير.

قالت سلمى تَرْسِمُ بسمة على شفتيها تُخفي رجفة عصبيّة تتسبّب لها بحركة لا إرادية أسفل خدّها الأيسر:

– سأحضّر القهوة حالًا.

وتوجّهت مسرعة نحو المطبخ تمسح دمعة فرّت من عينها غصبًا عنها، حَرصَتْ على ألّا يلحظها أيٌّ منهم.

جهّز فارس نفسه، وخرج للحصول على إذن لزيارة باسل في المشفى، كمحام تم توكيله للدّفاع عنه.. فلم يُسمح لأبويه، أو لأحد من أفراد عائلته بزيارته، أو حتّى التّحدّث إليه عبر الهاتف.

توجّه الجدُّ فارس إلى المشفى، دخل غرفة باسل التي كانت تخضع للحراسة المشدّدة، وكأنه مجرم إرهابيٌّ. فهزَّ رأسه مستهجنًا ذلك، طلب أن يتحدّث مع الطفل الأسير على انفراد.

كان باسل ممدّدًا، مُغْمَضَ العينين، تلفّ يده اليمنى إسورةٌ حديدية موصولة بسلسلة مربوطة بالسرير الذي ينام عليه، رِجْلُه ملفوفة بشاش أبيض مصبوغ باللون الأحمر..

وقف فارس بجانب السّرير يتأمّل حفيده الطّفل الذي كبر قبل أوانه. شعر بحزن أوجع قلبَه.. فالبراءة تسكن ملامح وجه الصّغير.. لا زال طفلًا يحلم بالألعاب.. لا زال مشاغبًا في المدرسة يشكو منه مُدرّسوه.. لا زال يحنُّ إلى صدر أمِّه يغفو عليه.

مَسَّدَ الجدُّ على رأس حفيده بحنان، وطبع قُبلة على جبينه، فتح باسل عينيه بصعوبة.. لم يتوقّع أن يرى جدَّه أمامه.. فقد نال ما يكفي من الضّرب والتّعذيب طيلة أربع وعشرين ساعة الماضية.. صمت بُرهة.. ثمَّ قهقه رغم ألمه، أمسك يد جدِّه سعيدًا، فهو صديقه الصّدوق، وحافظ أسراره. رحّب به كعادته، قائلًا جملته الشّهيرة عند بداية كلِّ لقاء: «أهلًا بالفارس المغوار».. فضحك الجدّ سعيدًا بحفيده الذي كان يحاول أن يتصرَّف على

طبيعته، يُخفي ألمه. ردَّ الجــدّ على حفيده بصوت عالٍ: «أهلا بحفيــد الفارس المغوار».. أقلقْتَنا يا صاحبي.. ماذا حصل معك؟ حدِّثني بالتّفاصيل.

التفت باســل حوله، وقال: أين أمي وأبي؟ أين أخي طــارق؟ أين أختي هدى؟ أين جدّتي سلمى؟ لماذا لم يأتوا معك؟

– أنا هنا بصفتي محاميك الّذي سيدافع عنك يا باسل، وليس بصفتي جدّك.

ابتسم باسل راضيًا، وقال: الحمد لله على أنَّك درست المحاماة يا جدّي، ولم تدرس أيّ تخصُّصٍ آخرَ.

ضحك الجدُّ، وضمَّ حفيده يشعر بقلقه وخوفه، قائلًا:

– أنــا هنا لأســاعدك، لا أريدك أن تقلق يا باســل، ما عليك ســوى أن تتذكّر أدقَّ التّفاصيل الّتي حدثت معك بعد خروجك من المدرســة، وتحكيها لي، واتركِ الباقي على جدِّك صديقك.

انتهتِ الجلســة التي جمعت الجدَّ والحفيد، وطلب فارس تقريرًا طبّيًّا مفصّلًا عن حالة باسل، بعدها توجَّه إلى النّيابة العامّة، وهناك استطاع أنْ يستصدر له أمرًا بالإفراج إلى حين موعد المحاكمة، شريطة دفع 5000 شــيكلٍ غرامة ماليّة، والتزامه بشروط الحبس المنزليّ، وإلّا يتعرَّضْ والداه للمساءلة القانونية، قد تصل إلى الحبس الفعليّ، إضافةً إلى دفع غرامة مبلغ 10000 شيكلٍ أخرى.

عاد باسل إلى بيته سعيدًا في بادئِ الأمر، يجد الحبّ والحنان، والرّعاية الطّبيّة من صديق العائلة الذي كان يزورهم مساءً كلَّ يوم، يُغَيِّر على الجرح، ويراقب وضعه الصّحّيّ.

ولِحُسْــنِ حظّ باســل أنَّ الحادثة حصلت في نهاية العام الــدّراسيّ، فحصلت أمّه على موافقة المدرسة على إعفائه من تقديم الامتحانات النّهائية، بسبب خضوعه للحبس المنزليّ الذي يمنعه من مغادرة المنزل. فلم يخسر عامَه الدراسيّ، بل تســلَّمَ شهادته ناجحًا في كلِّ الموضوعات.

دخلت بعدها العطلة الصّيفية الّتي تكثر فيها الرّحلات والنّشاطات المختلفة،

مضى الشّـــهر الأوّل على مَضَضٍ، ودخل الشّـــهر الثّاني، يحاول باســـل أن يستوعب حبســـه في المنزل، فلم يستطع. كان يرى إخوته، وأصدقاءه، وأبناء الجيران، كلّ يتوجّه إلى المخيّمات الصيفيّة، والنّوادي في الصّباح، وبعد الظّهر يتجمّع الأصدقاء يلعبون كرة القدم في الملعب المقابـــل لمنزلهم في بيت حنينا.. وهو ممنوع من الخروج خارج عتبة المنزل.. وإلّا تعرّضَ والداه للمساءلة القانونيّة.

كَـــرِهَ المنزل، وَكَرِهَ مَنْ في المنزل، كان يرى أنَّ جميع أفراد الأسرة يلعبون دَوْرَ الشّرطيّ، كلٌّ يراقب تحرّكاته، ويعطيه النّصائح والتّعليمات عن مدى خطورة مغادرته المنزل. خاصّة أنَّ هناك ســـاعةً إلكترونيّة تمَّ تثبيتها في أســـفل رِجْله فوق مِشْط قدمه، تعطي إنذارًا عند خروجه من المنزل، أو حتّى عند قيامه بأيَّةِ حركة زائدة، حتى لو كانت داخل المنزل.

وفي أحـــد الأيّـــام، بينما كان يلعب مع شـــقيقه طارق الذي يصغره بســـنتين.. إذ كانا يتصارعانِ، ثمَّ أَخَذا يركضان في المنزل، فإذا بالسّاعة تسجّل حركة غير اعتيادية، وما هي سوى دقائقَ، حتّى اقتحم مجموعة من رجال الأمن المنزل بهمجيّة أرعبت أخته الصغيرة، وأربكت من في المنزل. سألوا: إنْ كان باسل قد تخطّى عتبة المنزل.

تســـبَّبَتْ هذه الحادثة بحالة ذهول أصابت باسل، بعدها دخل في حالة من الاكتئاب، لَزِمَ غرفته، وأبى أنْ يتفاعل مع الأسرة.

قلقت عليه العائلة، فاقترحتِ الجدة سلمى أنْ يُقيموا له حفلًا كبيرًا في المنزل بمناسبة عيد ميلاده الثالث عشر الذي سيأتي بعد يومين. خاصّة أنَّها كانت رغبته في العام الماضي، إلّا أنَّه تعذَّرَ ذلك بسبب دخول أخته هدى المشفى، إذ خضعت لعملية إزالة اللوزَتَيْنِ.

اشـــترك جميع العائلة بتزيين الصّالة (بالبالونات)، والأشرطة الملوّنة، إلّا صاحبَ عيد الميلاد.

تَمَّتْ دعوة جميع زملاء باسل، وأصدقائه وجيرانه.

بدأ المدعوّون بالتّوافد، كلٌّ يحمل هديته سعيدًا يتمنّى لباسل العُمُرَ المديد. لفت نظرَ الجميع الطّاولةُ الأنيقة التي كانت على يمين الصّالة، تزخر بالحلويّات والمُشهّيات، والعصائر، والمرطبات ممّا لذَّ وطاب.. وصدحتِ الموسيقى، وانطلقتِ الحناجر، كلٌّ يُغنّي طَرِبًا. ولكنْ باسل أبى الخروج من غرفته، حاولت أمُّه أن تقنعه بالخروج.. رَجَتْهُ.. بكت محروقة عليه، فلم تنجح.. حاول والده برجاء، ففشل هو الآخر.

اقترحتِ الجدَّةُ سلمى أنْ يستعينوا بصديق عُمُره فؤاد.. ففشل هو أيضًا، بل أهمله، وتجاهَلَ وجودَه.

زاد ذلك من قلق عائلته عليه، فقرَّرَ جدُّه فارس أن يتصرَّف، دخل غرفته، وجلس بجانبه على السرير:

– باسل.. لماذا ترفض الخروج للاحتفال بعيد ميلادك؟ ألا تدري أنَّ المَدْعوّين جاؤوا للاحتفال بك؟ هل تريد أنْ تحرج العائلة؟ أستغرب تصرُّفَك! تأكَّدْ أنَّني لن أرجوك.. افعلْ ما شئت. أنا فعلًا مصدوم منك.. هل أنت حقًّا صديق الفارس المغوار؟ أنا لا أصاحب الضعفاء.

– .....

– ماذا!! ألا تريد أن تُعْلِمني عن سبب عدم خروجك من غرفتك؟

حسنًا.. ابقَ في غرفتك، ولا تخرج، لن أرجوك.. سنحتفل.. وسنقطع الكعكة دون وجودك.. وسيغادر الضيوف، كلٌّ يؤلِّف قصَّته على مزاجه. لم أعهدك ضعيفًا يا باسل.

وهَمَّ الجدّ بالانصراف.. فقفز باسل من سريره يُمْسِكُ بجدّه.. وارتمى في حضنه يبكي.. مزَّق قلب جدّه.. ضمّه الجدُّ، وتركه يبكي يُفرِغ ما به من مشاعر سلبية.. فلم يستطعِ الصغير البكاء منذ حادثة اقتحام البيت التي أرعبتِ الأُسرة.. إذ أشعرته بعذاب الضمير.. خاصّة أنَّها تسبَّبَتْ بالتّبول اللاإرادي لأخته الصغيرة هدى.. كما حُرِمَتِ الأُسرة من السّفر إلى إسطنبول لحضور زفاف ابنة عمِّه ربى، وذلك لعدم تركِه وحدَه في المنزل.

تسبَّبَ حبســه في المنزل بالضغط النفسيِّ لجميع أفراد الأسرة. كلٌّ يسعى إلى إرضائه، وتقديمِ كلِّ مــا يرغب.. لتعويضه عن الخروج من المنزل. والآن يُقيمون له احتفالًا كبيرًا بعيد ميلاده لإرضائه.. لكنَّه لا يســتطيع إهمال نظرات الشّــفقة التي كَرِهَها، وأشــعرته بضعفه.

عبَّرَ عن مشاعره لجدِّه.. كان يزفر كلمات تخرج من قلب صغير بريء كَتَمَها، فخرجت بُركانًا.

قال الجدُّ يتفهَّم مشاعره:

– يا صديقي، التّفكير السّلبي يمنع المرءَ من رؤية الطّريق المضيئة، ويجعل المرء يتَّجِه إلى الطريق المظلمة، التي لا يجد لها مخرجًا.

ســتنتهي هذه الفترة العصيبة يا صديقي، ولن يبقى منها ســوى الذكريات. أَقْدِمْ على الحياة.. لا تنسحب منها. فلو أنّني انسحبت من الحياة فترةَ اعتقال أبي، وَهَدْمِ منزل العائلة، وَرَفْضِ والد جدِّك تزويجي جدَّتك سلمى، ما نجحت في حياتي وما أثبتُّ وجودي.. وما كنت نِدًّا لكلِّ مَنْ تحدّاني، وحاول النّيل منّي.

أســميتُ أمَّك أمل؛ لأنّني تغلّبت عــلى الصعاب والتّحدّيات أنــا وجدّتك بالأمل والتفاؤل.

– نعم يا جدّي، ولكنَّ الأمر كان مختلفًا.

– ليس مختلفًا يا صديقي، فأنت لســت أوَّلَ شخص يتعرّض للحبس المنزليّ، ويتسبّب بالقلق والتّوتر لعائلته.. هذا ليس ذنبك.. لا تحمّل نفسك فوق طاقتها.

كلٌّ يُحبّك يا باسل، وجميعُهم جاء؛ ليحتفل بك لأنَّك تعني لهم كثيرًا.

هيّا اغسلْ وجهك، والبس أجملَ ما عندك.. وتعطّرْ، وقُمْ بواجب ضيوفك..

كما أنَّني اشتقت لعزفك على الجيتار.

لا تتأخّر.. وإلّا سنقطع الكعكة دونك.. معك عشرُ دقائقَ فقط لا غيرَ.

نظرَ باسل إلى جدِّه نظرة امتنان.. وهزَّ رأسه يرسم على شفتيه ابتسامة رضا.

خرج الجدُّ مــن غرفة حفيده، وبعد أقلّ من عشر دقائقَ، دخل باســل الصّالة، يحمل جيتــاره، يعزف لَحْنَ أغنية جــدِّه المفضَّلة التي تدعو للأمل والتفــاؤل (حقِّق حلمك):

وانطلقت الحناجر فرحة تغني مع باسل:

اوعك في يوم تقول الدّنيا صعبة عليّا

هات إيدك تحقق حلمك بس تعال شِويّا

المِس حلمك بإيدك أكيد حتحقّقو

متسِبش حدّ يهدّ حلمك إوعا تصدّقو

إوقف واجه همومك

الدّنيا منعيشها مرّة مش منعيشها مرّتين...

وسط الغيوم شايف شمس طالّة عليّا من بعيد....

وسط الهموم حنعيد الأمل من جديد.....

غادر الضيوف الحفل، يشهدون أنّه أجملُ حفلِ عيد ميلادٍ حضروه في حياتهم.

وفي صباح اليوم التالي، تلقّى باسل خبر موعد محاكمته بعد أسبوعين من تاريخه.

فاستقبل باسل الخبرَ بكلمات أغنية جدِّه المفضَّلَة، كما عوّده صديقه الفارس المغوار.